

أسس نظام العروض العربي بين الفرضيات المعاصرة والرؤية التراثية The Foundations of the Arabic Prosody System between Contemporary Hypotheses and Traditional Perspectives

محمد عبد العزيز عبد الدايم الرفاعي

دار العلوم بجامعة القاهرة (مصر) abdeldaiem@cu.edu.eg

تاريخ الارسال 2024-11-04 تاريخ القبول 2024-12-30 تاريخ النشر 2024-12-31

ملخص

على الرغم من المحاولات العديدة لفهم النظام العروضي العربي، وربما تحديد موقعه بين أنظمة العروض في اللغات بعامة، لا تزال ثمة فرصة لتقديم المزيد من التصورات الجديدة. وهذا ما يحاول هذا البحث أن يطرحه من خلال رؤية خاصة للأسس العروضية في العربية.

وهو يعالج أسس النظام العروضي العربي من خلال قراءة أهم فرضياته المعاصرة، وبخاصة التي لم تحظ بعرض أو دراسة تحليلية تقويمية، وتقدم رؤية التراث لهذه الأسس في ضوء النظام اللغوي، وتفاعل المستويات اللغوية.

ويحاول البحث الإجابة عن تساؤلات الخاصة بالمعايير التي تحكم الوحدة العروضية المختلفة؛ فهو يهدف إلى بيان الأسس التي يبنى عليها تنوع كل وحدة من الوحدات العروضية، كالأساس الذي انقسمت الوحدة العروضية الصغرى - مثلاً - إلى متحرك وساكن وفق التعبير التراثي، فضلاً عن التفاعلات العروضية الأكبر. ولم يقتصر على تقديم تصوره الخاص بهذه الأسس، وإنما قدّم تفسير التغييرات التي تطرأ على التفاعلات العروضية في ضوء تصوره الخاص.

الكلمات المفتاحية:

النظام العروضي؛ النظرية العروضية؛ فرضيات المقطع والمورا والنبر.

Abstract

Despite numerous attempts to understand the Arabic prosodic system and possibly to locate it among the prosodic systems of other languages, there remains room to introduce new perspectives.

It addresses the foundations of the Arabic prosodic system by examining key contemporary hypotheses, especially those that have not received analytical or evaluative study, and by presenting the classical perspective on these foundations in light of the linguistic system and the interaction of linguistic levels. It aims to answer questions regarding the standards governing various prosodic units, with a focus on clarifying the foundations that underlie the diversity of each prosodic unit. For instance, it examines the basis for dividing the smallest unit into a moving.

Keywords Translation:

Prosodic System; Prosodic Theory; Syllable, Mora, and Stress Hypotheses.

يملك العروض - كما يملك أي نظام - وحدات وعلاقات يتشكل منها نظامه. ولا يقصد البحث بأسس النظام العروضي الوحدات العروضية الصغرى التي تُصنّف في التصور التراثي بالمتحرك والساكن، وإنما يقصد بها المعايير التي تحكم الوحدة الصغرى، وغيرها من الوحدات العروضية المختلفة.

والحقيقة أن هذه الأسس لم يحظ أساسٌ منها بالتحليل إلا الأساس الذي يقوم عليه النظام العروضي العام، ويُعْثَرُ به الوحدة العروضية الأساسية، أي الصغرى، فالمحاولات المختلفة تحاول الإجابة عن الوحدة العروضية التي يمكن أن تُستبدل بها - أو على الأقل تُفهم بها - الوحدة العروضية الصغرى، وقد اقترحت هذه المحاولات أن يكون التبادل بين الوحدات العروضية في الشعر العربي قائماً على أساس النبر، أو طول المقطع، أو المورا (mora)، أو غير ذلك من المقترحات التي سنشير إليها لاحقاً.

وعلى خلاف ذلك، يأتي بحثنا ليناقد جملة الأسس التي تحكم تصنيف الوحدة الصغرى، والتفعية، والبحر، فضلاً عن التغييرات التي تطرأ على العروض، وبخاصة الزحافات.

وسوف نعالج الموضوع من خلال ثلاثة محاور رئيسية، أولها عن قراءة الفرضيات المعاصرة لتحليل النظام العروضي للعربية، وثانيهما النظامين الفونولوجي والعروضي للعربية، وثالثها عن الرؤية التراثية فيما تنصّره لهذا النظام.

2. الفرضيات المعاصرة لتحليل النظام العروضي

حظيت النظرية العامة للعروض في اللغات بعامة بعدة جهود، يأتي على رأسها ما قام لوتز (Lotz) وآخرون من دراسة مقارنة لوضع مثل هذه النظرية العامة التي يمكن أن تكون معياراً لفهم النظام العروضي في اللغات الإنسانية بعامة، وقد جمعوا قواعدها في أعمال مختلفة⁽¹⁾.

وتتنوع أسس تلك النظرية العروضية العامة - كما يقرر لوتز (Lotz) - وفق نوع المحاولات؛ فهناك أربع فئات أساسية لهذه المحاولات تتردد بين مراعاة فئات الأوزان من مقطعية خالصة، إلى زمنية، إلى حركية (ديناميك)، إلى نغمية⁽²⁾.

أما بالنسبة لتحليل النظام العروضي للعربية، فإن المحاولات الحديثة والمعاصرة فقد ترددت بين الاختصار على نقد النظرية الخليلية، وطرح تصوراتٍ بديلة، وقد اتخذت عدة فرضيات.

نشير ابتداءً إلى أن بعض الأسس التي طرحها محاولات تحليل نظام العروض في العربية قد وردت في التراث العربي، وهو ما يظهر في إشارات الفارابي (260-339 هـ) وابن سينا (370-427 هـ) التي تقارن بين نظامي العروض العربي واليوناني. ومن ذلك حديث ابن سينا عن أثر النبر والمدات في خلق نظام عروضي ولحن، يقول: "وللنبرات حكم في القول يجعله قريباً من الموزون، وكذلك فإن القول المنشور - أيضاً - قد يجعل بالمدات

⁽¹⁾ Lotz, John, *Metric Typology*, in *Style in Language*, ed. Thomas A. Sebeok, Cambridge, Massachusetts, MIT, 1960, p. 135- 148.

⁽²⁾ *Ibid.*

موزونًا كالخسروانيات⁽³⁾. كما يشير إلى أن بعض التراكيب العربية تصير بتوزيع النبر من قبيل وزن الأيambic (Iambic). يقول عن إمكان وجود ما يقابل وزن إيامبق اليوناني في النثر العربي في مراعاة النبر في إحدى العبارات: "ويشبهه - والله أعلم - أن يكون هذا الجنس من الكلام باليونانية يسمى "أيامبقي"⁽⁴⁾. ومنه - كذلك - حديث الفارابي من قبله عن مقابلة الأسباب والأوتاد والتفعيلات للمقاطع والأرجل عند اليونانيين، يقول عن تركيبات الوحدات العروضية في الشعر اليوناني: "وهي التي تعرف عند العرب بالأسباب والأوتاد، وعند اليونانيين بالمقاطع والأرجل"⁽⁵⁾. وليست الأرجل أو الأقدام (feet) - في الحقيقة - هي المقاطع، وإنما الوحدات التي تتركب من المقاطع، وهي التي تقابل في نظام العروض العربي التفعيلات لاشتغال الواحد منها على أكثر من صائت، بخلاف المقاطع التي يقتصر الواحد منها على صائت واحد.

والحقيقة أن الأساس يمثل الوحدة الصوتية التي توظف لإنشاء النظام العروضي وتحقيق الإيقاع الذي يحقق تنظيم الضربات.

لقد درج العروضيون على تقديم المتحرك والساكن بوصفهما الوحدتين الصغيرين للنظام العروضي، منهما تقوم الأسباب والأوتاد التي تقوم عليهما تفعيلات البحر.

وما دمنّا تكلمنا عن المتحرك والساكن، نشير إلى لحظة مهمة تظهر - على سبيل المثال - في حديث ابن رشد (520 - 595 هـ) في تفرقه بين الصامت والصائت أن الصامت هو المادة، والصائت هو الهيئة. يقول: "وبالجملة، فينبغي أن تعلم أن الصوت يحدث من شيئين: أحدهما ما ينزل منه منزلة المادة، وهو الذي يسمى حرفاً غير مصوت، والثاني منزلة الصورة، وهو الذي يسمى حرفاً مصوتاً، ويسميه أهل لساننا الحركات وحروف المد واللين"⁽⁶⁾.

ويلفت هذا الفرق نظرنا إلى موقع النظام العروضي من كل من الصامت والصائت، هل يعنى النظام الصوتي بمجموعهما معاً، كما قد يتبادر من مصطلح المتحرك، أم أن الموقع الصامت من النظام العروضي كموقع جنس الحرف من علم الصرف.

(3) ابن سينا، أبو علي الحسين. (1958). الخطابة، المنطق، ج4، الشفاء، تصدير إبراهيم مذكور، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة: المطبعة الأميرية، ص 223.

(4) الفارابي، جوامع الشعر مع تلخيص ابن رشد، ص 172.

(5) الفارابي، أبو نصر. (1931). إحصاء العلوم، تحقيق عثمان محمد أمين، القاهرة: مطبعة الخانجي، ص 9 - 10.

(6) ابن رشد، أبو الوليد (520 - 595 هـ). (1971) تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ومعه كتاب جوامع الشعر للفارابي، تحقيق محمد سليم سالم، القاهرة: لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص 135.

والحقيقة أن المتحرك الذي يشتمل على صامت وحركة يذكر بما يراه فرولوف (Frolov) أدنى الوحدات العروضية، وهي "الوحدات العروضية الأولية" (elementary prosodic units) (EPU)، التي تتحكم بعض القيود الصارمة في طولها وبنيتها. وتُعدّ مقاطع عروضية⁽⁷⁾.

والحقيقة أن ثمة تساؤلاً مهماً، وهو هل يقوم تنظيم الإيقاع في الشعر العربي على تقابل ثنائية المتحرك والساكن، أم يقوم على شيء أصغر من ذلك؟

لكي نتبين حجم التساؤل المطروح، نشير إلى أبرز ما طرحته المحاولات في تحليلها للنظام العروضي للعربية. لننتق أولاً على أن التصورات التي تحاول أن تقع على الأساس الحقيقي للنظام على اختلافها تنفق في قصدها إلى الأساس الحقيقي، وربما في دورانها حوله، وأنها لا تختلف فيما أحب أن أراها إلا في درجة قربها من الأساس الفعلي وبعدها عنه.

2.1. فرضية طول المقطع (تناوب المقاطع القصيرة والطويلة)

يرى إيwald (Ewald) – حسبما يذكر فايل (Weil)⁽⁸⁾ – المقطع بوصفه مصدراً للإيقاع في الشعر العربي، وقدّم خمسة أنواع من الإيقاع العربي مقارنةً بالتركيب اليونانية في (De metris carminum Arabicorum)⁽⁹⁾. كتابان عن أوزان القصائد العربية مع ملحق تصحيحات لعدة شعراء.

والحقيقة أن طرح فرضية المقطع تطرح أكثر من إشكال، على رأسها ما يأتي:

1. أنها تستلزم أن يكون المقطع من الوحدات اللغوية في العربية، وهو أمر يحتاج أن يحرر لأن المقطع مبناه على الصائت (vowel)، وهو ما سوف يشير البحث فيما بعد إلى أنه قد لا يكون قائماً في العربية؛ فإن النظام الفونولوجي يعتمد على بيان التشكيل الفونولوجي للعربية على الصامت (consonant) الذي يظهر في قولهم لا يمكن البدء بساكن، ولا يتوالي ساكنان في غير الوقف أو الحرف المشدد بعد حرف المد. وسوف يفصل هذا الأمر في الحديث عن النظامين الفونولوجي والعروضي للعربية.

2 أن القول بأن المقطع هو العنصر التبادلي الذي يقيم النظام العروضي في الشعر العربي يحتاج ما يأتي:

أ. أن يثبت نوعاً المقطع الثقيل والخفيف في العربية في مستوى اللغة الفونولوجي عملاً بمبدأ ضرورة أن يكون العنصر لغوياً حتى نتفهم وجوده في العروض، أو نمحه فرصة الاختبار لأن يكون أساساً عروضياً، فإن عدم ثبوته في لغة ما على المستوى الفونولوجي يحول دون اعتماده أساساً لأي نظام من أنظمتها صرفياً أو نحوياً أو عروضياً.

ب. أن يقدم أساساً واضحاً ومستقراً وثابتاً لحساب ثقل المقطع وخفته لا تخرج عنه العربية، فضلاً عن الشعر العربي.

⁽⁷⁾ Frolov, Dmitry, *Classical Arabic verse: History and theory of 'arūd*, Boston : Brill, p. 90.

⁽⁸⁾ Weil, G. "Arūd", in EI¹, vol. I, Leiden, E.J. Brill, 1960, p. 667- 576. و

⁽⁹⁾ Ewald, Heinrich, *De metris carminum Arabicorum libri duo, cum appendice emendationum in varios poetas*, Oxford University press, 1825.

ج. أن يحقق التناوب بين نوعي المقطع الثقيل والخفيف نظامًا مطردًا حتى نستشعر تحقيق هذا التناوب بين المقاطع الثقيلة والخفيفة للنظام العروضي.

ج. ألا تنقض الزحافات التي يقبلها الشعر العربي مبدأ التناوب بين صنفَي المقاطع الثقيلة والخفيفة، وأن تفسر حالات الزحاف المختلفة تفسيرًا لا يخل بالنظام العروضي؛ فإن قبول الفرضية يقوى إذا كانت تفسر أكبر قدر من الظاهرة، وأن تملك تفسيرًا لما خرج عنها.

2.2. فرضية (الصائت)

وهو ما يتبناه ستانيسلاس جويار (Stanislas Guyard)⁽¹⁰⁾ الذي يعد الصوائت هي الأصوات الموسيقية⁽¹¹⁾، أو يجب أن تأتي بعد كل صوت موسيقي⁽¹²⁾.

ويمكن تسجيل بعض الملاحظات على فرضية الصائت التي يقول بها جويار (Guyard) تتمثل فيما يأتي:

- أنه لم يفرق بين الحركة القصيرة والطويلة؛ فهما على السواء من قبيل الصوائت، ولو قال أحد: إن الصوائت - بشكل عام - هي الأصوات الموسيقية أو مادة التشكيل الموسيقي، لاستشكل عليه بأن دورهما مختلف موسيقيًا عند العروضيين العرب؛ إذ يساوي الصائت الطويل - حرف المد - الصامت الساكن، ويأخذ رمزًا عروضيًا واحدًا، وهو رمز الساكن (O)؛ ومن ثم إذا أراد أن يقدم فرضية تخرق الفرضية التراثية، فإنه مطالب بأن يقدم تشكيلاً موسيقيًا مغايرًا للتشكيل الموسيقي القائم على فرضية مغايرة، وبثبت أنها صحيحة غير منتقضة؛ إذ التشكيل الموسيقي مرهون بالفرضية التي يقوم عليها، متى اقترحت فرضية مناقضة للفرضية التي بني عليها لزم من يقدم هذه الفرضية أن يقدم التشكيل الموسيقي المناسب لفرضيته الجديدة المناقضة للفرضية السابقة. فإذا كان جويار لم يقدم تشكيلاً موسيقيًا جديدًا مغايرًا للتشكيل الموسيقي للعروضيين العرب، فإنه ملزم ألا يقدم ما يتعارض مع الفرضيات التي بني عليها هذا التشكيل، ولا يخفى أن القول بتساوي الحركة القصيرة وحرف المد مما لا يقول به العروضيون العرب، بل إنهم - على العكس من ذلك - قد ساووا بين حرف المد والصامت الساكن.

صفوة القول في هذه المسألة أن الحديث عن الصائت مطلقًا، أي بلا تفريق بين الطويل والقصير - تسوية بين متغايرين في التصور المقابل، وأنه لم يؤدّ حق المغايرة من تقديم تشكيل موسيقي قائم على فرضيته الجديدة، أو معالجة الإشكالات التي تقوم بسبب عدم الاعتداد بالفرق بين المتغايرين.

- أنه تواجهه مشكلة مزج الصائت بالصامت؛ فمرة يتكلم عن صائت يكون أساس المادة الموسيقية، وثانية يجعل أساس المادة الموسيقية هو الصامت الذي يتبعه صائت؛ الأمر الذي يردنا إلى ما يشبه التسوية بين الصائت

⁽¹⁰⁾ Guyard, Stanislas, *Théorie Nouvelle De La Métrique Arabe, Précédée De Considérations Générales Sur Le Rhythme Naturel Du Langage*, Paris, Imprimerie nationale, 1877.

⁽¹¹⁾ Ibid., p. 13.

⁽¹²⁾ Ibid., p. 8.

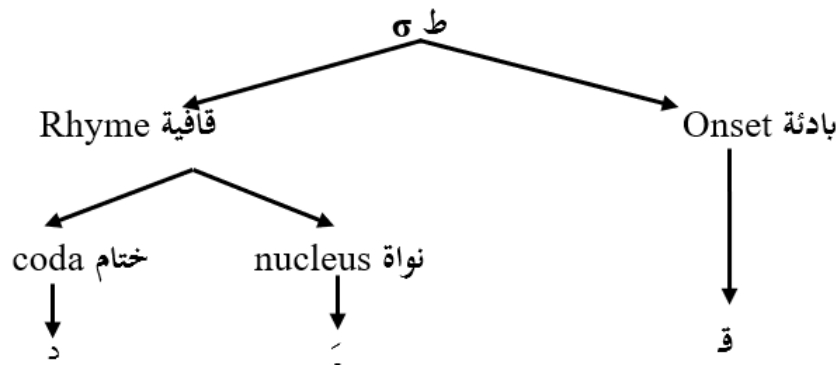
والصامت؛ إذ يجعل الصوت الموسيقي في المرة الثانية هو الصامت نفسه، وإن اشترط له أن يصحبه صائت، وهو الأمر الذي يمثل مساساً بأصل فرضيته، أو يحتاج بياناً وتفصيلاً لهذه المسألة.

2.3. فرضية المورات (moras)

يرد مفهوم المورا (mora) في الدرس الفونولوجي بشكل عام، وقد وظفتها بعض الدراسات في استنباط النظام العروضي الذي يتم تشكيل القصيدة العربية بناء عليه. وتقف على رأس هذه الدراسات التي تطرح فرضية كون المورا أساساً عروضياً في العربية دراسة جولستون (Golston) ورياض (Riad)، وهي تتبني نظرية الأمثلية (optimality theory). ويحمل هذا النموذج لقب "العروض التطريزي" (prosodic metrics).⁽¹³⁾

وتستحق هذه الفرضية الوقوف معها وتحليلها؛ إذ هي محاولة معاصرة تتصل بتفسير الظاهرة العروضية وبيان النظام العروضي للعربية، وتعزز الحاجة إلى تحليلها بكون الدرس العربي في حدود مراجعتي له يتعرض لهذه الفرضية؛ ومن ثم فإنها بحاجة إلى أن تطرح على بساط المناقشة، لتأخذ حقها من المراجعة والمناقشة. وهي تقترح المور (mora) أساساً موسيقياً خاصاً بها انطلاقاً من تسليمها بصلاحيّة مفهوم المورا (mora) لبيان التشكيل الفونولوجي للغة العربية وعرضه.

ونحتاج- كذلك- أن نعرف ما إذا كانت مثل هذه الفرضية تختلف جوهرياً عن الأساس التراثي للتشكيل العروضي مع كونه أكثر شمولاً وإيجازاً منه، أم إنها مجرد إعادة صياغة للأساس الذي يطرحه التراث. تلزم- على أية حال- الإشارة إلى أن المورا لا تمثل وحدة لغوية، إنما تمثل وحدة قياس فونولوجية، وهي تعادل صائتاً قصيراً، فالصائت الطويل يساوي اثنتين من المورات، أما الصامت فيرد بوصفه مورا في بعض اللغات فحسب إذا تبع نواة المقطع، نحو صوت الدال في المقطع الآتي:



شكل "التحليل الثلاثي للمقطع العربي"، مثال كلمة (قَد)

⁽¹³⁾ Golston, Chris & Riad, Tomas. (1997). The phonology of Classical Arabic meter. Linguistics. 35. 10.1515/ling.1997.35.1.111.

ويعني ذلك ببساطة أنه على الرغم من أن المورا تعادل صائناً قصيراً، إلا أنها تختلف عن الصائت من جهة أنها بينما تمثل وحدة قياس، يمثل الصائت أو الصامت الواقع في ختام المقطع، أي بعد الصائت، كالدال في نحو: "قَدْ" (CVC) كما مثّلنا- المادة التي تقاس بوحدة المورا (mora)، وليس هو المورا (mora) نفسها. والحقيقة أن الملاحظات الأولية على القول بالمورا (mora)، لا الصائت القصير تتمثل فيما يأتي:

- أنه يحل إشكال كون الصائت الطويل (long vowel) - حرف المد- يرد مقابلًا للصامت (consonant)؛ فإن حرف المد- كالألف في نحو: "ما"- يعادل عند الخليل الصامت الساكن، نحو الدال من "قد"؛ فهما على السواء يُرمَز إليهما بمتحرك فساكن (/o/)؛ إذ ترى فرضية المورا (mora) أن الدال الواردة بعد فتحة القاف- التي هي نواة المقطع (nucleus)- أنها تساوي مورا (mora)، فتكون "قَدْ" بمثابة زوجين من المورات (morae)، مورا (mora) تقابل فتح القاف، ومورا (mora) تقابل الدال الساكن الواردة بعد الفتحة التي تمثل نواة المقطع (nucleus).

- أنه يستلزم التسليم بكون العربية لغة تعتمد المورا (mora- counting language) لا لغة تعتمد المقطع (syllable- counting language) حسب تقسيم تروبتسكوي (Trubetzkoy) للغات⁽¹⁴⁾ يمكن إجمال ما تَتَقَلَّب بينه هذه المحاولات الحديثة والمعاصرة في الفرضيات الكمية والنوعية، وأن أسسها المختلفة تدور حول كل من طول المقطع ، ونبره، ووزنه الذي يعتمد على عدد المورات (moras).

2.4. فرضية الصائت القصير (short vowel)

وهي تلك الفرضية التي يطرحها عبد الدائم في بحثه عن مادة اللوحة الموسيقية وخلفيتها⁽¹⁵⁾؛ فإنه إذا كان يركز على التفريق بين مادة اللوحة الموسيقية وخلفيتها، إلا أنه يتبنى فرضية جديدة ترى أن الصائت القصير تحديداً هو مادة اللوحة الموسيقية، أو الأساس الموسيقي في القصيدة العربية. وهذه الفرضية تختلف عن فرضية جويار (Guyard) في كونها تلتزم الفرق بين الصائتين القصير والطويل، ولا تدمج بينهما على ما تفعله دراسة جويار (Guyard). وقد نجحت هذه الفرضية في تفسير مساواة التصور التراثي الذي طرحه الخليل بن أحمد للعروض العربي بين كل من الصائت الطويل (long vowel)، والصامت (consonant)؛ إذ جعلتهما الخلفية التي تنقش عليها الحركات القصيرة (short vowels)؛ ومن هنا خرجت هذه الفرضية تحت عنوان "The Painting and the Background" (اللوحة والخلفية) تأكيداً للفرق الذي يشتهه عبد الدائم، أو- على الأحرى- يفترض أن العروضي الأول- الخليل بن أحمد- قد أراده، أو هُديَ إليه.

⁽¹⁴⁾ Trubetzkoy N. S. (1969). *Principles of phonology*, Translated by Christiane A. M. Baltaxe, USA: University of California Press, p. 189.

⁽¹⁵⁾ Abd El-Dayem, Mohamed. "The Painting and the Background in Arabic Prosody: A New Theory for Arabic Metrics", *Islamic Studies* 63:3 (2024) pp. 359-386. <https://doi.org/10.52541/isiri.v63i3.3219>

لقد أثبتت هذه الدراسة أن كلاً من الصائت الطويل - حرف المد - (long vowel) والصامت - الصحيح الساكن - (consonant) ليس لهما من دور أكثر من وضع الصوائت القصيرة (short vowels) في حزم؛ إذ لولا ورود كلاً من الصائت الطويل والصامت الساكن لخرجت الصوائت القصيرة (short vowels) متتابعة، بلا نظام خاصٌ تخرج عليه.

وعلى الرغم من أن الصوائت الطويلة (long vowels) والصوائت الساكنة (consonants) ليست هي المادة التي تشكل بها اللوحة الموسيقية إلا أن دورها هذا حيويٌّ للغاية؛ فلولاها لما كانت هناك تشكيل، ولا موسيقى، إذ لولا النظام الخاصة للصوائت القصيرة (short vowels) لما كانت ذات طبيعة موسيقية. إنها تكتسب موسيقية من هذا النظام الذي يتيح لها شيء من خارجها، وهو الصوائت الطويلة (long vowels) والصوائت الساكنة (consonants).

وقد تكفّلتُ بتفسير الزحافات التي تدخل التفعيلات العروضية في ضوء فرضيتها المتمثلة في كون الصوائت الطويلة (long vowels) والصوائت الساكنة (consonants) تقوم بتوزيع الصوائت القصيرة (short vowels) في حزم عروضية تجعل منها نظاماً مستقرّاً.

والحقيقة أن فرضية عبد الدايم (Abd El-Dayem' hypothesis) تمثل قراءته الخاصة للنظرية الخليلية؛ إذ لا تزيد عن أن تكون نظرية على النظرية، نظرية نظرية، لا نظرية تشرح الظاهرة نفسها، أو تبين نظامها. إنها فرضية أو نظرية تبين تصور الخليل للنظام العروضي في العربية.

وأرى أن تلك الفرضية جديرة بمراجعتها في ضوء ظواهر العروض المختلفة حتى يحزر مدى مناسبتها للنظام العروضي العربي على ما تتبناه.

3. العربية بين النظامين الفونولوجي والعروضي

ثمة نقطة أساسية ينطلق منها هذا البحث في مناقشته للفروض المعاصرة للعروض العربي - فضلاً عن التصور الذي طرحه الخليل بن أحمد - وهو تفاعل المستويات اللغوية بعضها مع بعض؛ فالقيم الفونولوجية توظيف في الصرف والنحو، مثلما توظف القيم الصرفية في المستوى التركيبي، فإن الأصوات على اختلاف أنواعها وأحكامها التي يقررها علم الأصوات هي التي توظف في صياغة الأوزان الصرفية للكلمات، وكذلك تستخدم الصوائت علامة للإعراب، وليس من المتصور أن يرد عنصر في مستوى لغوي ما، لا علاقة له بالمستوى الأدنى أو الأعلى؛ فإن ذلك أشبه بزراعة عضو غريب عن الجسد وغير متوافق معه. لقد درس اللغويون اللغة المركب الأكبر للغة، وحللها حتى وصلوا إلى أجزائها الصغرى إن على مستوى الدلالة والشكل أو على أحدهما، وهذا ما صنع ارتباطاً بين العناصر الكبرى ومكوناتها الصغرى.

ويعني هذا ببساطة أنه لا بد للعناصر أو المكونات العروضية أن تكون عناصر لغوية بشكل ما؛ فلا يمكن أن يستحضر الدارس عنصراً غير قائم في غير العروض ليفترض وجوده في النظام العروضي. ولتوضيح هذه الفكرة، لا يحق لأحد أن يقول بوجود النبر في نظام الصرف أو النحو أو العروض ما لم يكون قائماً في النظام الفونولوجي

لغة نفسها؛ فإن اللغة لا تستخدمه في الصرف أو النحو أو العروض إلا إذا كانت تستخدمه بشكل منضبط في ال مستوى الفونولوجي، أي لا يكفي أن يكون موجودًا فحسب، بل يلزم أن يكون جزءًا من النظام الفونولوجي له قواعد وضوابطه.

يستمد العروضيون أساس النظام العروضي من إحدى القيم الفونولوجية، وغالبًا ما يرتبط التركيب العرضي بالتركيب الفونولوجي؛ فإن وحدة التفعيلة "foot" - الوحدة العرضية - تتكون من مقاطع - الوحدات الفونولوجية الكبرى.

ومن ثم نحتاج تحرير خصوصية النظامين الفونولوجي والعروضي في العربية، وذلك فيما يأتي:

نبدأ بفكرة مهمة جدًا لدى فرولوف (Frolov)⁽¹⁶⁾ تتصل بالنظامين الفونولوجي والعروضي للعربية، وهي أن اللغة العربية لغة تعتمد بالمورا (mora)، لا لغة تعتمد بالمقطع وفق ما يشير إليه تروبتسكوي (Trubetzkoy) بخصوص البنية الفونولوجية للغات كما سبقت الإشارة إليه بعالية. والمورا (mora) وحدة قياس صوتية. والحقيقة أنني أتفق معه في أن اللغة العربية لا تعتمد بالمقطع، أما المورا فأرى أنها قد تميزت عن غيرها بأنها في إطار البنية الفونولوجية اعتمدت على الصامت، وفي إطار البنية العرضية اعتمدت على الصائت الذي يقاس بالمورا (mora).

وثمة فرضيات تفصيلية أراها جديرة بالطرح بخصوص نظامي العربية الفونولوجي والعروضي، تتصل بمفهوم الساكين والمتحرك، وذلك على النحو الآتي:

تتمثل الفرضيات المتصلة بهما فيما يأتي:

1. أن مفهوم الساكين الذي يطلق على كل من الصامت غير المصاحب بحركة قصيرة أو طويلة، وعلى الحركة الطويلة التي يقال لها حروف المد؛ لأن أعضاء النطق عندما تأخذ وضع نطق الصامت أو الحركة القصيرة تسكن ولا تتحرك، فيبقى الصامت بلا حركة معه، وتمتد الحركة القصيرة مع بقاء أعضاء النطق على وضعها فتصير حروف مد ساكنة.

2. أن مفهوم الحركة - التي تمثل نواة المتحرك - قد جنى عليه تصور الصائت في المفهوم الغربي المعروف بـ (vowel)؛ فلم يفهم كثير منا كيف تكون الحركات الطويلة ساكنة، أي كيف تكون حركات طويلة، وساكنة في الوقت ذاته. والحقيقة أن المصطلح مستمد في تراثنا من وضع أعضاء النطق كما هو الأمر مع الساكن؛ فإنها لا تثبت بعد أن تأخذ وضع نطق الصامت، وإنما تظل متحركة تسمح للهواء بحمل صوت الصامت.

⁽¹⁶⁾ Frolov, Dmitry, *Classical Arabic verse: History and theory of 'arūd*, Boston : Brill, 2000.

3. أن نظام العربية الفونولوجي ليس كنظام الإنجليزية يدور حول الصائت (vowel-centered system)؛ فبناؤها الفونولوجي لا يناسب وحدة المقطع التي تقوم أساسًا على الصائت أو بديله بوصفه نواته التي يقوم بوجودها.

4. أن نظام العربية الفونولوجي يقوم على ما يمكن أن نسميه بحزمة الصوت (segment pack)، وهو الوحدة التي نقترحها بديلاً عن وحدة المقطع (syllable)، ونراها أنسب للتصور التراثي العربي.

5. أن تراثنا درس البنية الفونولوجية للعربية في إطار الساكن، لا الصائت؛ فلديهم أربع قواعد تتصل بالساكن؛ فالساكن لا نبدأ به، ولا نقف إلا به، ولا يلي ساكنًا إلا عند الوقف، ولا يبتعد عن الساكن في الكلمة الواحدة أو ما هما كالكلمة الواحدة بأكثر من ثلاثة متحركات.

6. أن تراثنا اللغوي لم يلجأ إلى مكونات المقطع البادئة، والقافية، والنواة، والختام، واعتمد على القواعد الأربع للبنية الفونولوجية للعربية.

7. أن حزمة الصوت (segment pack) تتأسس على الساكن، مثلما تتأسس وحدة المقطع (syllable) على الصائت.

8. أن حزمة الصوت (segment pack) تتيح قيام حزمة الوتد المجموع (/o/) أو المفروق (/o/) أو الفاصلة الصغرى (/o/)؛ إذ لا تمنع من ورود أكثر من حركة بخلاف المقطع الذي يقوم حول حركة مفردة، لا تغيب، ولا تتعدد.

9. أن حزمة الصوت الساكن تمثل حزمة فونولوجية (phonological pack) تقابل المقطع (syllable)، وتعد حزمة عروضية إذا وُطِّقَتْ في العروض (metrical pack).

4. الرؤية التراثية للأساس العروضي

ثمة عدة فرضيات تتصل برؤية تراثنا العروضي للأساس الذي يبنى عليه النظام العروضي للعربية، وهي تتمثل فيما يأتي:

1. أن أي مناقشة لفرضيات الخليل لن تكون أكثر من فرضيات حول فرضياته غير المعلنة. ومن ثم ترجع إلى البحث، والنظرية أو مجموعة الفرضيات التي يطرحها حول نظرية الخليل.

2. أننا لن نفهم النظام العروضي حتى نفهم أمرين: أحدهما فونولوجي، والآخر عروضي، وهما يحتاجان إلى تفسيرين حقيقيين، وهما - على أية حال - يتمثلان فيما يأتي:

أ الأمر الفونولوجي الذي يلزم فهمه هو سبب تعادل الصامت (C) للصائت الطويل (VV) وتساويهما، وتعادل بنية المقطع الطويل المغلق (CVC) لبنية المقطع الطويل المفتوح (CVV).

ب الأمر العروضي الذي يلزم فهمه هو تعادل أثرهما الإيقاعي؟ إذ كيف يعادل الصامت الساكن الحركة الطويلة؛ فيقابلان معًا الحركة القصيرة على المستوى العروضي؟

3. أنه يمكن تفسير التعادل الفونولوجي في إطار عدّ العربية لغة تراعي المورا (a mora- counting language)، أي تعد "الوزن بالموقع" (weight by position) شرط أن نسلم بتوظيف النبر في النظام الفونولوجي للعربية، لكنه - على أية حال - لا يفسر التعادل على المستوى العروضي؛ لأن المشكلة ليست في وجود النبر الذي يجعل الصامت الوارد في الختام كالصائت في كونه يمثل مورا تعكس نبرًا؛ نظرًا لغياب الدور الصوتي للنبر في النظام اللغوي العربي؛ فلا يمكن أن يغيب فونولوجيًا، ويحضر عروضيًا.

4. أن تفسير هذا التعادل على المستوى العروضي يحتاج الفرضيات الفرعية الثلاث الآتية، وهي:

أ أن النظام العروضي - كما يراه الخليل - يعتمد الحركة القصيرة مادة للوحة الموسيقية، وأن الساكن إن هو إلا خلفية للوحة الموسيقية؛ إذ تتوزع عليها الحركات؛ فإن الساكن - صامتًا أو حرف مد - هو الذي يتيح توزيع الحركات في حزمة أحادية (سبب خفيف)، وحزمة ثنائية (وتد)، وحزمة ثلاثية (فاصلة صغرى)، إنه هو الذي يخرج الحركات في حزم، ولولاه لكان التشكيل العروضي عبارة عن حركات متتابعة، لا حزم.

ب أن استواء الصامت الساكن وحرف المد مرّده عند الخليل أنهما يمثلان خروجًا متساويًا عن الحركة القصيرة التي تتخذ الوحدة الأساس أو المعيارية للعروض؛ فإنها تساوي حركة قصيرة واحدة (مورا)، ويتساوى من ثمّ الخروج عنها بحرف المد الذي يجعلها ضعفين (اثنين من المورات)، والصامت الساكن الذي يذهب بها (صفر من المورا).

ج أن معيار التفريق بين الحركة المعيارية وغيرها هو قدر امتداد الحركة.

5. أن من مشكلات فهم النظام العروضي للعربية التي تتصل بأساس الحركة القصيرة التي تمثل الوحدة الأساس مشكلة تساوي صور التفعيلة السالمة والمزاحفة على الرغم مما يقوم بها من إسكان لثاني السبب الثقيل، وحذف لثاني السبب الخفيف، وهي تضرب مباشرة في الأساس العروضي المعتمد الذي يتمثل في الحركة القصيرة، ومقابلته للساكن، كما كانت تضرب في مسألة طول المقطع ووزنه والنبر.

6. أن تفسير هذه المشكلة يحتاج إلى بعض الفرضيات، وهي:

أ أن النظام العروضي للعربية عند الخليل يعتمد في التفعيلة حزمة الوتد حزمة معيارية، ويقابلها بالحزمة غير المعيارية سببًا أو فاصلة صغرى. وهي وسط بين حزمتي السبب والفاصلة، أي الحزمتين الأحادية والثلاثية.

ب أن المقابلة بين الحزم المعيارية وغير المعيارية قائم على عدد الحركات، لا على طولها.

ج أن هذه التغيرات تتم على مستوى التفعيلة التي يقوم التقابل فيها بين حزمة الوتد الثنائية وحزمتي السبب والفاصلة الصغرى.

د أن هذه التغيرات لا تستهدف الوتد، وهو ما يعكس كونه الوحدة المعيارية للتفعيلة.

هـ أن حزمة الوند يتم تكرارها بعد مسافات زمنية منتظمة، وبعد عدد من الحركات، أو بعد أحدهما دون الآخر.

و أن السبب الثقيل لا يمثل ليس "حزمة" عروضية (metrical pack)؛ لاشتراط الحزمة أن تحتوي على ساكن في نهايتها في الأغلب، أو وسطها في حالة الوند المفروق

ز أن ورود التفعيلة سالمة يعني تكررها بعد مسافات زمنية منتظمة، وعدد من الحركات.

ح أن إسكان المتحرك الذي لا يقوم إلا في السبب الثقيل، لا يؤثر في المسافات الزمنية التي تتكرر بعدها الأوتاد؛ إذ تبقى المسافات الزمنية واحدة بصرف النظر عما تشغل به هذه المسافات الزمنية.

ط أن حذف الساكن لا يؤثر في عدد الحركات التي تتكرر بعدها الأوتاد؛ لأنه لا يكون للمتحرك.

5. خاتمة

ينتهي البحث إلى ما يأتي:

1. أن الأساس العروضي للعربية- الذي اجتهدت الدراسات الحديثة المختلفة في الوقوف عليه، فطرح المقطع والنبر والمورا- لا يزال بحاجة إلى مزيد من المناقشة والمراجعة للوقوف على فرضية تفسر النظام العروضي تفسيراً منضبطاً، وتناسب بشكل أكبر من الفرضيات المطروحة، وتقل معها صور الخروج عنها، أو الشذوذ، أو غياب التفسير.

2. أن الأساس العروضي للعربية قد تمثل عند الخليل في الحركة القصيرة (V)، وهي التي يمكن بوصفها- في نظرنا- بالحركة المعيارية.

3. أن هذه الحركة أو الصائت القصير (short vowel) تمثل- كما أشارت دراسة "اللوحة والخلفية" مادة اللوحة الموسيقية.

4. أن هذا الأساس العروضي الذي نتصور قيامه عند الخليل- وفق ما يعكسه النظام العروضي الذي كشفه- لا يزال من وجهة نظرنا- أكثر تغطية للنظام العروضي للعربية، ويمكن تفسير أكثر الظواهر العروضية في ضوءه بشكل أكثر اتساقاً.

5. أن الساكن- صامتاً أو حرف مد- ليس أكثر من خلفية للوحة الموسيقية، وأن الصامت تحديداً يلزم لأمرين، وهما: حمل الحركة المعيارية، وإبقاؤها معيارية؛ إذ لولا الصامت الساكن لتحولت الحركات القصيرة إلى طويلة.

6. أن التناوب الذي يحقق "تنظيم الضربات" لا يتمثل في ثنائية الحركة القصيرة والساكن، وإنما في توزيع الحركات نفسه.

7. أن الحركة القصيرة في مقابلة الساكن يمثلان اللوحة وخلفيتها.

8. أن التفريق بين الحركة القصيرة من جانب والساكن صامتاً أو حرف مد من الجانب الآخر يتمثل في مقدار امتداد الحركة.

9. أن التغييرات التي ترد في التفعيلة وتتغير بها الحركة بالإسكان، ويغيب الساكن الذي يمثل فاصلاً بين الحركات لا تؤثر في الإيقاع الذي يعتمد حزمة الوتد حزمة معيارية تتكرر بعد عدد معين من المسافات الزمنية والحركات، أو بعد أحدهما إن حدث إسكان أو حذف للساكن.
10. أن حزمة الصوت العروضية- على خلاف المقطع- تراعي الوحدات ذوات الحركة المتعددة غير المفردة، كالوتد المجموع (/o//)، الوتد المفروق (/o/)، فضلاً عن الفاصلة الصغرى (/o///).
11. أن حزم الصوت الفونولوجية تقوم على الصامت بوصفه الصوت المستقل الذي يجب أن يبدأ به المتكلم، لا على الصائت.

قائمة المراجع

أولاً- العربية

- ابن سينا، أبو علي الحسين. الخطابة، المنطق، الشفاء، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني، تصدير إبراهيم مذكور، المطبعة الأميرية، القاهرة: 1958.
- الفارابي، أبو نصر. إحصاء العلوم، تحقيق عثمان محمد أمين، مطبعة الخانجي، القاهرة: 1931.
- - جوامع الشعر، مع تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر لابن رشد، تحقيق محمد سليم سالم، لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة: 1971.
- ابن رشد، أبو الوليد تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ومعه كتاب جوامع الشعر للفارابي، تحقيق محمد سليم سالم، لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة: 1971.

ثانياً- الأجنبية

- Abd El-Dayem, Mohamed. "The Painting and the Background in Arabic Prosody: A New Theory for Arabic Metrics", Islamic Studies 63:3 (2024) pp. 359-386. <https://doi.org/10.52541/isiri.v63i3.3219>
- Ewald, Heinrich. *De metris carminum Arabicorum libri duo, cum appendice emendationum in varios poetas*, Oxford University press, 1825.
- Frolov, Dmitry. *Classical Arabic verse: History and theory of 'arūd*, Boston : Brill, 2000.
- Golston, Chris & Riad, Tomas. (1997). The phonology of Classical Arabic meter. Linguistics. 35. 10.1515/ling.1997.35.1.111.
- Guyard, Stanislas. *Théorie Nouvelle De La Métrique Arabe, Précédée De Considérations Générales Sur Le Rythme Naturel Du Langage*, Paris, Imprimerie nationale, 1877.
- Lotz, John. Metric Typology, in *Style in Language*, ed. Thomas A. Sebeok, Cambridge, Massachusetts, MIT, 1960, p. 135- 148.
- Weil, G.
- "Arūd", in EI¹, vol. I, Leiden, E.J. Brill, 1960, p. 667- 576.